International Journal of Humanities & Social Sciences
Volume (7) – DECEMBER - 2018
SJIF Impact Factor 3.38
المجلة الدولية للعلوم الانسانية والاجتماعية
العدد السابع-ديسمبر 2018
ISSN:1858-838

شعر الاعتذار في حقبة ملوك الطوائف بالأندلس

د. سليمان إبراهيم عبدالله إبراهيم. أستاذ مساعد ، جامعة الخرطوم– كلية التربية– قسم اللغة العربية

د: فائزة علي عوض العليم علي. أستاذ مساعد ، جامعة الخرطوم– كلية التربية– قسم اللغة العربية

المستخلص:

هدفت الدراسة إلى عرض اختيارات من الشعر في غرض الاعتذار في حقبة ملوك الطوائف بالأندلس وبيان تفنن الشعراء فيه، وخلصت الدراسة إلى نتائج عدة منها: كثرت الاعتذاريات في شعر الطوائف لما شاب هذا العهد من فتن وقلاقل ونزاعات وتفكك الدولة وانقسامها الى دويلات مدن متنازعة فيما بينها غالباً، ففي مثل هذه الأجواء تكثر الوشايات والدسائس والأطماع الشخصية في أحوال متبدلة غير مستقرة فتشكل أخصب مادة للاعتذار ودوافعه. ولم تخرج المعاني التي طرقها الأندلسيين في هذه الحقبة عن تلك التي طرقها المعتذرون في المشرق من لدن النابغة الذبياني وهي تدور حول تثبيت حق العقوبة للمعتذر إليه، والتذكر بالود والصفاء السالف الذي كان سائداً بين المعتذر والمعتذر إليه، واستواء الموت والحياة بالنسبة للمعتذر والإلحاح على العفو والرضا ومدح المعتذر إليه، ثم إن أغلب الاعتذاريات أشارت إلى عقوبة القتل وما ذلك إلا لموجة العنف السائدة في تلك الحقبة.

الكلمات المفتاحية: الاعتذار, الأشعار ,ملوك الأندلس

Abstract

The study aims at showing a selected poetry of apologies in Altawaif kings era and the evaluation of poets. The study came out with lots of findings: the plenty of apologies at the time, the state suffered from disintegration and division. In the mentioned situation rumors, Conspiracy and personal issues increased.

The objectives of the Poetry were as similar as that in the east as well as Alnabia Alzibyani poetry. It's totally about punishment, forgiveness, consequences and the wishes of life or death to the apologized person and the right of punishment for the person who apologized to him. The execution as a punishment in the poetry shows clearly the extent of violence in that era. .

المقدمة:

الاعتذار فن شعري وباب واسع من أبواب الشعر العربي طرقه الشعراء عبر عصور الأدب المختلفة، واحتل حيزاً مقدراً في شعر الإخوانيات، ولعلّ فترة حكم ملوك الطوائف في الأندلس من الفترات التي كثرت فيها القصائد الاعتذارية لما شاب ذلك العهد من فتن وقلاقل، وعدم استقرار في الناحية السياسية، وتبدلات اجتماعية مستمرة، ولا شك أن العصر كان مزدهراً فكرياً نقيضاً لما كانت عليه الناحية السياسية المتسمة بالضعف. جاءت دراستنا عن شعر الاعتذار في عهد ملوك الطوائف هادفة إلى دراسة بعض الاختيارات من القصائد في غرض الاعتذار وبيان ما أتى به الشعراء في هذا الفن.

بدأت الورقة بتمهيد حول الاعتذار وتعريفه لغة، وأقوال عنه ثم ابتداع النابغة له بالمشرق منذ العصر الجاهلي وحذو الشعراء حذوه مع وقفة مع اعتذاريات البحتري، ثم دلفت إلى اعتذاريات الأندلسيين في فترة حكم الطوائف، وكان الاختيار واقعاً على بعض نماذج لشعراء هم جعفر المصحفي، والمعتمد بن عباد، وابنه الراضي، وابن سيدة، وابن عمار وابن زيدون، فهؤلاء أعلام عصر الطوائف أدباً وعلماً وسياسة، لذلك تكون نماذجهم في الاعتذار تمثل بحق بقية الأشعار في هذا الفن، هذا وقد قسم اعتذاريات الأندلسيين إلى أقسام ثلاثة حسب دوافع المعتذر وهي: الاعتذاريات التي جرت مجرى الإخوانيات، واعتذاريات التوجس والهرب، ثم اعتذاريات السجون والحبس. ثم ختمت الورقة بخاتمة تضمنت أهم ما توصل إليه من نتائج.

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية الدراسة من كونها تتبع غرضا مهما من أغراض الشعر العربي في حقبة تاريخية مفصلية في الأندلس ازدهرت فيها الآداب رغم ما شابها من تدهور وسياسي وتفكك اجتماعي.

اهداف الدراسة:

هدفت الدراسة إلى عرض اختيارات للشعر في غرض الاعتذار في حقبة ملوك الطوائف بالأندلس، ودراستها لبيان تفنن شعراء ذاك الصقع فيه.

نماذج الاعتذار فى الشعر العربى:

الاعتذار لغة:

جاء الاعتذار في كتب اللغة والمعاجم بمعانٍ متقاربة وهو إظهار ما يسقط اللوم وتدور اشتقاقاته في ذلك جاء في الصحاح: "عذر الاعتذار من الذنب. واعتذر رجلٌ إلى إبراهيم النخعي فقال له:

قـــد عـــذرتك غيـــر معتـــذر * إن المعـــاذير يشـــوبها الكـــذب

واعتذر بمعنى أعذر، أي صار ذا عذر . قال لبيد:

إلـى الحَـولِ ثُـمَّ اِسـمُ السَـلامِ عَلَيكُمـا * وَمَـن يَبـكِ حَـولاً كـامِلاً فَقَـدِ اِعتَـذَر[15]

وفي اللسان: "الاعتذار محو أثر الذنب"[9] وفي المخصص: "عذر: العذر الحجة التي يعتذر بها والجمع أعذار؛ يقال: اعتذر فلان: اعتذاراً وعذرة ومعْذِرة ومعذُرة من دينه فعذرته، وعذرة يعذرُه (يعذرِه) فيما ضنع عذراً وعذرة وعُذرى ومعذُرة (معذرة) والاسم المعذرة (لمعذِرة) ولي في الأمر عذرٌ وعذرى ومعذرةً أي خروج من الذنب. قال الجموح الظفري.

قالـــت أمامـــة لمـــا جئـــت زائرُهـــا * هـــلاّ رميـــت بـــبعضِ الأســـهُمِ السُـــود

لله درك إنّـــــي قـــــدْ رمَيـــــتَهم * لـــوْلا حُـــدَدت ولا عُـــذرى لمحـــدودِ[6]

"والفرق بين التوبة والاعتذار أن التائب مقرٌّ بالذنب الذي يتوب منه مصّرف بعدم عذره فيه، والمعتذر يذكر أن له في ما آتاه من المكروه عذر"[10] . ولو كان الاعتذار هو التوبة لجاز أن يقال اعتذر إلى الله كما يقال تاب إليه، وأصل العذر إزالة الشيء عن جهته، اعتذر إلى فلان فعذره أي أزال ما كان في نفسه عليه في الحقيقة أو في الظاهر ويقال عذرته عذيراً ولهذا يقال من عذيري من فلان: وتأويله من يأتيني عذر منه ومنه قوله تعالى: (عذراً أو نذراً)[1] سورة المرسلات الآية(10) يحفل التراث العربي بالاعتذاريات نثراً وشعراً، وإيراد الجوانب الإيجابية فيه والسلبية بغية التحذير عما يجره كثرة الاعتذارات حتى لا تنطلي على الناس فليس كل اعتذار صائب ومن ذلك قول الجرجاني في التعريفات: "وفي بعض الآثار إياك وما يعتذر منه، وروى عن إبراهيم النخعي: أنه اعتذر إليه رجل فقال:

قد عذرتك غير معتذر إن المعاذير يشوبها الكذب.

وقال مطرف بن الشخير إن المعاذير مكاذب"[5] . في الأمثال قال القاسم بن سلام: "ومن" مثالهم في الاعتذار قولهم: شغلت شعابي جدواي: أي شغلتني أموري عن الناس والافضال عليهم"[5] وفيه أيضاً: "اعتذر رجل إلى سلم بن قتيبة فقال سلم: لا يدعونك أمر قد خلصت منه، إلى الدخول في أمر لعلك لا تخلص منه. وقال كان يقال: دعوا المعاذر فإن أكثرها مفاجر. واعتذر رجل إلى أحمد بن أبي خالد فقال لأبي معاذ: ما تقول في هذا؟ قال: يوهب له جرمه، ويضرب لعذره أربعمائة. وقد قال الأول: عذره أعظم من ذنبه[15] . وقال الجاحظ: "وقالوا أمران لا يسلمان من الكذب: كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار[14]". هذا عن التحذير من تصديق كل معتذر وخاصة الذين يكثرون من الاعتذار حتى يقعون في غيره من الخطايا مع وجود كثرة من النصوص في قبول الاعتذار صدقاً أو كذباً. جاء في عيون الأخبار: "وفي الحديث المرفوع من لم يقبل من

معتذر صادقاً كان أو كاذباً لم يرد عليَّ الحوض. وفيه أقيلوا ذوي الهنات عثراتهم"[8] . ولعل الاعتذار تأرجح بين المدح والقدح خاصة في الشعر ففي قواعد الشعر قال آخر[13] :

اِقبَــل مَعــاذيرَ مَــن يَأتيــكَ مُعتَــذِراً * إِن بَــرَّ عِنــدَكَ فيمــا قــالَ أَو فَجَــرا
فَقَــد أَطاعَــكَ مَــن أَرضــاكَ ظــاهِرُهُ * وَقَــد أَجلــكَ مَــن يَعصــيكَ مُســتَتِرا

وفي عيون الأخبار[8] :

إذا اعتــذر الصــديقُ إليــك يومــاً * مــن التقصــير عــذر أخ مقــرِّ
قصــنه مــن عتابــك وأعــف عنــه * فــإن الصــفح شــيمة كــل حــرّ

وفيه أيضاً قال الخليل بن أحمد[8] :

لَــو كُنــتَ تَعلَــمُ مــا أَقــولُ عَــذَرتَني * أَو كُنــتَ أجهــلُ مــا تَقــولُ عَــذَلتُكا
لِكِــن جَهِلــتَ مَقــالَتي فَعَــذَلتَني * وَعَلِمــتُ أَنَّــكَ جاهِــلٌ فَعَــذَرتُكا

وفي العقد الفريد قال آخر[7] :

إِذا اِعتَــذَرَ الجــاني محــا العــذر ذنبــه * وكــلِّ امــرئٍ لا يقبــل العــذر مــذنب

للاعتذار أوجه توجبه فما سبق من شواهد في الاعتذار بعامة تستوي فيه الرتب من حيث العلوّ والرفعة أو الدنو التسفل، والندية. وهناك وجه آخر للاعتذار هو الاعتذار عن الفرار في الحرب ومن ذلك ما جاء في الأوراق: قول ابن عنقاء الهجيمي[17] :

أَجاعِلَــــةٌ أُمُّ الحُصَــــينِ خِزايَــــةً * عَلَــيَّ فِــراري أَن لَقيــتُ بَنــي عَــبسِ
فَلَــيسَ الفــرار اليــوم عــارٌ علــى الفتــى * وَقَــد عُرِفَــت مِنــهُ الشَــجاعَةُ بِــالأَمسِ

ومن ذلك أيضاً ما اعتذر به زفر بن الحارث الكلابي عن فراره يوم وقعة مرج راهط[16] :

فلــم تبــل مِنّــي نَبــوةٌ قَبــلَ هــذه * فِــراري وتركــي صــاحبيَّ ورائيــا

ISSN:1858-838

عَشـــيّة أَحـــرى بـــالقِرينِ فـــلا أرى * مِـــن النـــاسِ إلا مَـــن عَلَـــيّ ولا ليـــا
أيَـــذهَبُ يـــومٌ واحـــدٌ إن أسَـــأتُهُ * بصـــالح أيـــامي وحُســـنِ بَلائيـــا
فَقـد يَنبُـتُ المَرعـى علـى دَمِـن الثّـرى * وتَبقَـى حـزازات النُّفـوس كمـا هيـا

فالشاعر الأول ذكر إن إقدامه وشجاعته اللذان اشتهر بهما سابقاً يكفران ويعتذران عن فراره، أما زفر فذكر أنه فر مرة واحدة في حياته وينبغي أن يعتذر له ما قدمه من بلاء في معارك سالفة ، ولم ينس توعد خصومه من أنه سيكفر عما شانه. وقد اعتذر غير الشاعرين بأعذار أخرى من ذلك قول الشاعر[16] :

قالـــتْ أُمامَـــة لـــم تكـــن لـــك عـــادةٌ * أن تتـــرك الأصـــحابَ حتـــى تُعْـــذرا
لـــو كـــان قتـــل يـــا أمـــامُ فراحـــةً * لكـــن فـــررت مخافـــةَ أن أُؤســـرا

بلغ النابغة الذبياني بالاعتذار غايته وذلك في اعتذارياته للنعمان بن المنذر حتى قيل: "أشعر الناس أمرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب والنابغة إذا رهب وعنترة إذا كلب"[2] .

وقيل أيضاً: "أقسام الشعر في الجاهلية خمسة: "المدح والهجاء، والوصف والنسيب والمراثي حتى زاد النابغة فيها قسماً سادساً هو الاعتذار فأحسن فيه"[10] واعتذاريات النابغة أشهر من أن يشار إليها ويكفى ما سبق من قول علماء الشعر في النصين السابقين فالنص الأول إشارة إلى العواطف التي تبعث على قول الشعر ومن اشتهر بها من الشعراء فأصبحت سنة متبعة بعده، فالنص الأخير عن أقسام الشعر الجاهلي واستقراره على خمسة الأقسام ردحاً من الزمان فجاء النابغة فابتدع القسم السادس وهو الاعتذار، ولعل النابغة لم يترك وجهاً من وجوه الاعتذار إلاَّ قلبه لذلك كانت له الريادة والشهرة، ودعاه إلى ذلك الخوف من بطش السلطان وهذا اتجاه يمَّم شطره اعتذارات الشعراء والكتاب في أغلبها الأعم، وارتبط الاعتذار به إيّما ارتباط وذهب بجلَّ الشعر في الاعتذار، ولم يزد من أتى بعد النابغة من الشعراء على ذلك كثيراً مع أنهم قلبوا وجوه الاعتذار

الأخرى البعيدة عن الرهبة ومما يجمل بنا في هذا الصدد أن نذكر ما قيل عن البحتري في حسن الاعتذار ففي ديوان المعاني جاء حكاية عن الصولي عن ابن المعتز عن جودة شعر البحتري وتقدمه: " ... واعتذاراته في قصائده إلى الفتح التي ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة مثلها"[10] . وفي حماسة الخالديين قرن البحتري بالنابغة في فن الاعتذار "..... ولا أعرف أحداً من المحدثين بلغ مبلغه فيه إلا البحتري فإنه قد أجاد القول في صنوفه وأحسن وأبلغ ولم يذر لأحد رصد مزيداً حتى قال بعضهم هو في هذا النوع النابغة الثاني[10] . ومن أجود ما قاله في الاعتذار[12] :

فَـــدَيناكَ مِـــن أَيِّ خَطـــبٍ عَـــرا * وَنائِبَـــةٍ أَوشَـــكَت أَن تَنوبـــا
وَإِن كـــانَ رَأيُـــكَ قَـــد حـــالَ فِـــيَّ * فَلَقَّيتَنـــي بَعـــدَ بِشـــرٍ قُطوبـــا
يُريبُنـــي الشَـــيءُ تَـــأتي بِـــهِ * وَأُكبِـــرُ قَـــدرَكَ أَن أَســـتَريبا
وَأَكـــرَهُ أَن أَتَمـــادى عَلـــى * سَـــبيلِ اِغتِـــرارٍ فَـــأَلقى شُـــعوبا
أُكَـــذِّبُ نَفسـي بِـأَن قَـد جننـتَ * وَمـا كُنـتُ أَعهَـدُ ظَنّـي كَـذوبا
وَلَـو لَـم تَكُـن سـاخِطاً لَـم أَكُـن * أَذُمُّ الزَمـانَ وَأَشـكو الخُطوبـا
أَيُصـبِحُ وِردِيَ فـي سـاحَتَيكَ * طَرقـاً وَمَرعـايَ مَحـلاً جَـديبا
وَمـا كـانَ سُـخطُكَ إِلّا الفِـراقَ * أَفـاضَ الـدُموعَ وَأَشـجى القُلوبـا
وَلَـو كُنـتُ أَعـرِفُ ذَنبـاً لَمـا * تَخـالَجَني الشَـكُّ فـي أَن أَتوبـا
سَأَصـبِرُ حَتّـى أُلاقـي رِضـاكَ * إِمّـا بَعيـداً وَإِمّـا قَريبـاً
أُراقِـبُ رَأيَـكَ حَتّـى يَصِـحَّ * وَأَنظُـرُ عَطفَـكَ حَتّـى يَثوبـا

بدأ البحتري بتفديته من الخطوب والنوائب رغم رأيه الذي حال إلى ضده، وأنه في ريبة من تصرفاته وربما أدى به إلى الموت، مع أنه بكذب نفسه الواثقة بأن لا ذنب له حتى يسخط عليه، وبسخطه أصبح الزمان حرباً عليه وهو سخط كالفراق الذي يسجم دموعه ويحزن قلبه ويؤكد أنه لا ذنب له يجر عليه هذا الصدود

ISSN:1858-838

ولو عرف ذلك لما أبطأ في توبته عنه ومع كل ذلك فهو مواصلٌ صبره حتى يرضى عنه ومراقب رأيه حتى يصحّ ويثوب إلى عطفه عليه .. ومن اعتذارياته الجيدة أيضاً[12]

عَـذيري مِـنَ الأَيّـامِ رَنَّقـنَ مَشـرَبي * وَلَقَّينَنـي نَحسـاً مِـنَ الطَيـرِ أَشـأَما
وَأَكسَـبَني سُـخطَ اِمـرِئٍ بِـتُّ مَوهِنـاً * أَرى سُـخطَهُ لَـيلاً مَـعَ اللَيـلِ مُظلِمـا
تَـبَلَّجَ عَـن بَعـضِ الرِضـا وَاِنطَـوى عَلـى * بَقِيَّـةِ عَتـبٍ شـارَفَت أَن تَصَـرَّما
إِذا قُلـتُ يَومـاً قَـد تَجـاوَزَ حَـدَّها * تَلَبَّـثَ فـي أَعقابِهـا وَتَلَوَّمـا
وَأَصـيَدَ إِن نازَعتُـهُ اللَحـظَ رَدَّهُ * كَلـيلاً وَإِن راجَعتُـهُ القَـولَ جَمجَمـا
ثَنـاهُ العِـدى عَنّـي فَأَصـبَحَ مُعرِضـاً * وَأَوهَمَـهُ الواشـونَ حَتّـى تَوَهَّمـا
وَقَـد كـانَ سَـهلاً واضِـحاً فَتَـوَعَّرَت * رُبـاهُ وَطَلقـاً ضـاحِكاً فَتَجَهَّمـا
أَمُتَّخِـذٌ عِنـدي الإِسـاءَةَ مُحسِـنٌ * وَمُنـتَقِمٌ مِنّـي اِمـرُؤٌ كـانَ مُنعِمـا
يُخَـوِّفُني مِـن سـوءِ رَأيِـكَ مَعشَـرٌ * وَلا خَـوفَ إِلّا أَن تَجـورَ وَتَظلِمـا
أَعيـذُكَ أَن أَخشـاكَ مِـن غَيـرِ حـادِثٍ * تَبَـيَّنَ أَو جُـرمٍ إِلَيـكَ تَقَـدَّما
أَلَسـتُ المُـوالي فيـكَ نَظـمَ قَصـائِدٍ * هِـيَ الأَنجُـمُ اِقتـادَت مَـعَ اللَيـلِ أَنجُمـا

بدأت الأبيات بشكوى الزمان وذم الأيام التي أكسبته سخط من يعتذر إليه مع أن سخطه يشوبه رضا ولكنه ليس كاملاً، ثم يمدحه ويحمل على الواشين الذين غيروه فثنوه عنه فأضحى معرضاً عنه صعب الأخلاق متجهم الوجه وانقلب إحسانه إساءة وأنعامه انتقاماً ثم يقول أنه لا جرم له ولم يحدث عنه شيء يجعله يخاف عقوبته ويمتن عليه بمدائحه الغرّاء فيه. ثم يطلب منه إعادة النظر في قراره وإلا فإنه سوف يغادر العراق إلى الشام والذي راضٍ بالأوبه قانعاً من الغنيمة. ثم يكرر مقولته بأنه لم يعرف ما اقترفه من ذنب، وهذا ما يجعله يموت حسرةً وكمداً مذكراً أياه بعهوده السالفة وما تناقلته الألسنة من تصافيهما ومدائحه فيه التي سارت بها

الركبان. وأنه مقر بما لم يجنه وأن يهب له ذنبه وله العتبى عليه حتى يرضى فإنه اهل للمعروف والعفو والصفح من شيمه التي عرف بهما وذلك في أبياته من القصيدة نفسها:

أَعِـد نَظَـراً فيمـا تَسَـخَّطتَ هَـل تَـرى * مَقـالاً دَنِيّـاً أَو فَعـالاً مُـذَمَّما
رَأَيـتُ العِـراقَ أَنكَرَتنـي وَأَقسَـمَت * عَلَـيَّ صُـروفُ الـدَهرِ أَن أَتَشَـأَّما
وَكـانَ رَجـائي أَن أَؤوبَ مُمَلَّكـاً * فَصـارَ رَجـائي أَن أَأوبَ مُسَـلَّما
حَيـاءً فَلَـم يَـذهَب بِـيَ الغِـيُّ مَـذهَباً * بَعيـداً وَلَـم أَركَـب مِـنَ الأَمـرِ مُعظَمـا
وَلَـم أَعـرِفِ الـذَنبَ الَّـذي سُـؤتَني لَـهُ * فَأَقتُـلَ نَفسـي حَسـرَةً وَتَنَـدُّما
وَلَـو كـانَ مـا خُبِّرتُـهُ أَو ظَنَنتُـهُ * لَمـا كـانَ غَـرواً أَن أَلـومَ وَتَكرُمـا
أُذَكِّـرُكَ العَهـدَ الَّـذي لَـيسَ سُـؤدُداً * تَناسـيهِ وَالـوُدُّ الصَـحيحَ المُسَـلَّما
وَمـا حَمَـلَ الرُكبـانُ شَـرقاً وَمَغرِبـاً * وَأَنجَـدَ فـي أَعلـى الـبِلادِ وَأَتهَمـا
أُقِـرُّ بِمـا لَـم أَجنِـهِ مُتَنَصِّـلاً * إِلَيـكَ عَلـى أَنّـي أَخالُـكَ أَلوَمـا
وَمِثلُـكَ إِن أَبـدى الفَعـالُ أَعـادَهُ * وَإِن صَـنَعَ المَعـروفُ زادَ وَتَمَّمـا

ولعلنا نكتفى بما قدمه هذان الشاعران وتفننا فيه من اعتذاريات بالمشرق ولعلهما قد مثلا ما قدم من اعتذار بالمشرق أروع تمثيل فالنابغة(وإن لم نأت له بنموذج لأنه أشهر من أن ينوه به) يعد مبتدع هذا الفن دون منازع، وتبعه البحتري في ذلك، وإن كان دافع النابغة الخوف والرهبة في اعتذارياته على نحو ما هو معروف، فإن البحتري لم يصل به الأمر إلى ما وصل إليه النابغة مع ذلك أبدع في الفن إبداعاً جعل النقاد يجعلونه في المرتبة الثانية فيه بعد النابغة، ولعل شاعرية البحتري وتصرفه في فنون القول جعلته يتبوأ تلك المكانة في الاعتذار.

ISSN:1858-838

اندلسيو الطوائف وشعر الاعتذار:

الشعر الأندلسي يقتفي في معظم أحواله أثر شعر المشرق معاني وأغراضاً وأخيلة وحتى الألفاظ في أحايين كثيرة وبديهي أن لا يكون الاعتذار بدعاً من هذا الأمر أو استثناءً، وكما ان الخوف دعا النابغة لابتداع هذا الفن، ودعا غيره كذلك من الشعراء ان ينحو منحاه، مضيفين إليه دوافع أخرى كالعتاب، والمداعبة وما يجري بين الأخوان والأصدقاء من ملاحاة، فقد تفنن الشعراء الأندلسيين في اعتذارياتهم المختلفة التي تجري مجرى الإخوانيات وتلك التي منبعها الخوف وسنتناول اعتذاريات الشعراء الأندلسيين في حقبة ملوك الطوائف حسب حالات قائليها عندما صدرت عنهم تلك الأشعار وهي اعتذاريات جارية مجرى الإخوانيات، واعتذاريات الهروب والابتعاد واعتذاريات السجون والحبوس ولا شك أن قائل الشعر في كل حالة من الحالات تختلف منازعه النفسية عن الحالة الأخرى فيصدر الشعر تبعاً لذلك لاختلاف العاطفة.

أولاً: اعتذاريات جارية مجرى الإخوانيات

أعني به ما قيل من اعتذاريات بدافع استدامة المودة والصداقة أو العتاب، أو ما يجري بين الذين تربطهم وشائج القربى أو الأقارب، ففي هذه الحالة لا يكون المعتذر خائفاً من المعتذر إليه ومن ذلك ما جاء في المغرب عن أبي الحسن جعفر بن أبي الحاج معتذراً لابن عصام[4] وفي القلائد نسبت الأبيات للمذكور معتذراً إلى القاضي أبي أمية[19] :

تقلصَ ظلٌ منك وازورّ جانب * وأحرزَ حظي من رضاكَ الأجانبُ
وأصبح طرقاً من صفائكَ مشربي * وأي صفاءٍ لم تشبه الأشائبُ
رويداً فلي قلبٌ على الخطب جامدٌ * ولكن على عتبِ الأحبة ذائبُ
وحسبك إقراري بما أنا منكرٌ * وإني بما لستُ أنكرُ تائبُ
أعدْ نظراً في سالف العهد أنه * لأوكد مما تقتضيه المناسبُ
ولا تعقب العتبى بعتبٍ فإنما * محاسنها في أن تتمَ العواقبُ
وأغلب ظني إن عندك غيرما * ترجمه تلك الظنون الكواذبُ
لك الخيرُ هل رأي من الصلح ثابتٌ * لديك وهل عهد من السمح آيبُ
تخبُ ركابي إنني بك هائمٌ * ويثني عناني إنني لك هائبُ
وإن سوأتني بالسخط من غير مظلم * فها أنا منك اليوم نحوك هاربُ

بدأ اعتذاره بأنه رآه مائلاً عنه إلى غيره، واصبح ما كان مبذولاً له –وكنَّى عنه بالشراب – مطروقاً من آخرين من الذين لا عهد لهم بقربه، ولا بد من شوائب تعلق بالشراب "وأيّ الناس تصف مشاربه" وهو غير قادرٌ على تحمل هذا الجفاء مع جمود قلبه عند الشدائد، ويكفى من يعتذر إليه إقراره بما ليس حقاً مما اتهم به وإعلان توبته عن ذاك ، ويذكره بما كان من صفاء بينهما في عهدهما السالف، ويرجوه أن يعقب هذه المعاتبة بعتاب

مثله، بل رضا وهو ما يظنه غير تلك الظنون الكواذب التي تثور في نفسه، ثم يسأل بعد عن رأيه هل سيرضى عنه، ويصلح ما بينهما؟ مع إحجام عن ذكر الاحتمال الثاني متحدثاً عن صراع الإقدام والإحجام في نفسه كأنه يهرب منه إليه لحبه له وخوفه منه في آن واحدٍ ومن ذلك أيضاً ما اعتذر به الراضي بن المعتمد لأبيه وقد أنهض جماعة من إخوته وأخمله[19] .

أعيـــذك أن يكـــون بنـــا خمـــول * ويطلـــع غيرنـــا ولنـــا أفـــولُ
حنانـــك أن يكـــن جرمـــي قبـــيح * فـــإن الصـــفح عـــن جرمـــي جميـــلُ
ألســـت بفرعـــك الزاكـــي ومـــاذا * يرجّـــى الفـــرع خانتـــه الأصـــول

اعتذارٌ يحمل عتاباً في طياته، واستعطاف ممزوج بفخر مع طلبه الصفح على آية حالٍ، وإن لم يكن مستيقناً بقبح جرمه، وهو يعد فرع من فروعه فإن زكا كان المؤمل والمبتغى وإن كان العكس فالعيب يعود إلى أصوله ويبدو إن الراضي هذا لم يزل أبوه عاتباً عليه في كل مرة ، ففي القلائد إن المعتمد احتجب عنه زمنياً ثم استدعاه – وهذه علامة الرضا – فقال أبيات وهو واثق بأن أباه قد عفا عنه فرضاه عنه متتغاه وشفاء فؤاده وإيراق لغصن ذوى وطلوع لنجم أفل وسحابة من سحابات الرضا جادت بهطلها، ويمتدح أباه بأنه ملك نافذٌ أمره، يذل من أراد، ويرفع شأن من أراد. فقلبه قد طار سروراً بهذا الاستدعاء مع مجاذبة الخوف كما يحب الشجعان الحرب – وأبوه أحدهم – وفيها ما فيها من مخاطر. وهو بعد لا يشك أن أباه يغتفر ذنبه وإن عظم، فالعظماء يحلمون على من جهل عليهم ذلك كله في أبياته[19] .

الآن تعـــــود صـــــبوة الأمـــــل * ويـــــدنو شـــــفاء فـــــؤادٍ معـــــلْ
ويـــــورقُ للغـــــرِّ غصـــــن ذوي * ويطلـــــع للســـــعدِ نجـــــمٌ أفـــــلْ
فقـــد وعـــدتني ســـحاب الرضـــى * بوابلهـــا حـــين جـــادت بطـــلْ

ISSN:1858-838

أيـــــا ملكـــــاً أمـــــره نافـــــذٌ * فمـــن شـــاء عـــز ومـــن شـــاء ذلْ
دعـــوت فطـــار بقلبـــي الســـرور * إليـــك وإن كـــان منـــك الوجـــلْ
كمـــا يســـتطيرك حـــب الـــوغى * إليهـــا وفيهـــا الظبـــا والأســـلْ
ولا غـــرو إن كـــان منـــك اغتفـــار * وإن كـــان منـــا جميعـــاً ذلـــلْ
فمثلـــك هـــو الـــذي لـــم يـــزل * يعـــود بحلـــم علـــى مـــن جهـــل

يدخل ضمن هذه الاعتذاريات الجارية مجرى الإخوانيات اعتذارات المجاوبة وهي كثيرة ، وربما يكون أحد الشعراء بادر بالعتاب أو الهجاء أو السخرية اللاذعة فيجاوبه الآخر على شعره بشعر يعتذر إليه استدامة للمودة والإخاء والصلة ونمثل لذلك أيضاً بما بين الراضي وأبيه المعتمد ، ففي القلائد إن المعتمد كتب إلى ابنه الراضي بعد جفوة مصطنعة(19-20) :

الملـــكُ فـــي طـــيّ الـــدَفاتِرْ * فَتخـــلّ عَـــن قَـــود العَســـاكِرْ
طُـــف بِالسَـــرير مســـلِّماً * وارجـــع لِتَوديـــعِ المَنـــابِرْ
وازحَـــفْ إلـــى جَـــيش المَعـــارِف * تَقهَـــر الحِبـــرَ المُقـــامِرْ
واطعَـــن بِـــأَطراف اليَـــراع * نُصـــرتَ فـــي ثَغـــر المَحـــابِرْ
واضـــرب بِســـكين الـــدَواة * مَكـــانَ ماضـــي الحَـــدّ بـــاتِرْ
أَوَ لَســـتَ رُســـطاليس إن * ذُكِـــرَ الفَلاسِـــفَةُ الأَكـــابِرْ
وَكَـــذَلِكَ إن ذُكـــر الخَليـــلُ * فَأَنـــتَ نَحـــويّ وَشـــاعِرْ
وَأَبـــو حَنيفَـــةَ ســـاقِطٌ فـــي الـــرأي * حـــينَ تَكـــونُ حاضِـــرْ
مـــن هُـــرمُسُ مـــن ســـيبَويهِ * مـــن ابـــن فـــورَك إن تُنـــاظِرْ
هَـــذي المَكـــارِمُ قَـــد حَوَيـــت * فَكُـــن لِمَـــن حابـــاك شـــاكِرْ
واقعُـــد فَإِنَّـــك طـــاعِمٌ كـــاسٍ * وَقُـــل هَـــل مِـــن مُفـــاخِرْ

ISSN:1858-838

أَوَ لَســـــتَ تَـــــذكُرُ وَقـــتَ لَورقـــــةَ * وَقَلبُـــــــك ثَـــــــمَّ طـــــــائِرْ
لا يَســـــــــــتَقِرُّ مَكانَـــــــــــهُ * وَأَبـــــــوكَ كالضِـــــــرغام خـــــــادِرْ
هَـــــــلّا اِقتَـــــــدَيتَ بِفِعلِـــــــهِ * وَأَطَعتَـــــــــــه إِذ ذاكَ آمِـــــــــــرْ
قَـــــد كـــــانَ أَبصَـــــرَ بِالعَواقِـــــبِ * وَالمَـــــــــوارِدِ وَالمَصـــــــــادِرْ

الأبيات تحمل سخرية بين طياتها وذلك لانشغال الراضي بالعلم عن سياسية أمور الدولة فها هي مكارمه بين الدواة والأقلام والدفاتر وقراءة علوم الأوائل وتأليفهم، ثم ذكره ما كان منه في لورقة، ويبدو أنها وقعة جبن فيها حين ثبت أبوه المعتمد وكأن كل علمه لم يغن عنه شيئاً في ذلك الوقت ويدعوه للاقتداء بأفعاله لأنه خبر الأمور وهو يصير بما تؤول إليه. فكان رد الراضي معتذراً بذات الروىّ والقافية بأنه كفر بما كان يعتقده بأن العلم أصل وتدبير أمور الدولة وسياستها فرع، وعلم أن الفخر للسيف لا للقلم وبالتالي قد هجر ما كان يقرأه من كتب لمن سماهم أبوه من العلماء مؤلفي تلك الكتب في شتى المجالات ويعتذر إليه رغم سخريته منه فلا عيب في ذلك، وهو عازم لتحويل هذه المنقصة إلى فضيلة، وأنه ذكره بساعة لورقة وهي ذلة لا ينسها ما عاش، وتمنى أن يكون قد قضى نهبه فيها هرباً من العار. وأنه لا يستطيع مجارات أبيه بل لا يمكن لأحدٍ ذلك لأن المعتمد فرد الدهر ونادرته، ولكنه مقابل ذلك يذكره بضبطه للجزيرة الخضراء وحيدا ليس ثمة معاون له والعدو يحاصره من كل جانب بخيله ورجله ولكنه ثبت جنانه، وربط جأشه وخاطر بحياته فيها، وهذا ليس من قبيل المفاخرة. ثم يختتم اعتذاريته بأنه قد أخطأ وأساء ومع ذلك ينبغي أن يصفح عنه ويغفر ذلته لأنه ابنه، وأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً كل ذلك في قوله[19] :

مـــــولاي قـــــد أصـــــحبت كـــــافرُ * بجميـــــع مـــــا تحـــــوي الـــــدفاترْ
وفللـــــــــتُ ســـــــــكين الـــــــــدواة * وظللـــــــــت للأقـــــــــلام كاســـــــــرْ

SJIF Impact Factor 3.38
ISSN:1858-838

وعلمـــــــتُ أن الملـــــــك مـــــــا * بـــــــين الأســـــــنة والبـــــــواترْ
والمجـــــــدُ والعليـــــــاء فـــــــي * ضـــــــرب العســـــــاكر بالعســـــــاكرْ
لا ضـــــــرب أقـــــــوالٍ بـــــــأقوالٍ * ضـــــــعيفاتٍ مكاســـــــرْ
قـــــــد كنـــــــت أحســـــــب مـــــــن * ســـــــفاه أنهـــــــا أصـــــــل المفـــــــاخرْ
فـــــــإذا بهـــــــا فـــــــرع لهـــــــا * والجهـــــــل للإنســـــــان غـــــــادرْ
لا يـــــــدرك الشـــــــرف الفتـــــــى * إلا بعسّـــــــال وبـــــــاترْ
وهجـــــــرت مـــــــن ســـــــميتهم * وجحـــــــدت أنهـــــــم أكبـــــــارْ
مـــــــولاي أن تســـــــخر فـــــــلا * عـــــــارٌ بنـــــــا إن كنـــــــت ســـــــاخرْ
أو كـــــــان بـــــــي نقـــــــص فمنـــــــي * غيـــــــر أن الفضـــــــل غـــــــامرْ
ذكـــــــرت عبـــــــدك ســـــــاعة * يبقـــــــى لهـــــــا مـــــــا عـــــــاش ذاكـــــــر
يـــــــا ليتـــــــه قـــــــد غيبتـــــــه * عنـــــــدها إحـــــــدى المغـــــــابرْ
أتريـــــــد منـــــــي أن أكـــــــون * كمـــــــن غـــــــدا فـــــــي الـــــــدهر نـــــــادرْ
هيهـــــــات هـــــــذا مطمـــــــحٌ * يعـــــــي الأوائـــــــل والأواخـــــــرْ
لا تـــــــنس يـــــــا مـــــــولاي * قولـــــــة ضـــــــارع لا قـــــــول فـــــــاخرْ
ضـــــــبط الجزيـــــــرة عنـــــــدما * نزلـــــــت بعقوتهـــــــا العســـــــاكرْ
أيـــــــام ظلـــــــت بهـــــــا فريـــــــدٌ * لـــــــيس غيـــــــر الله ناصـــــــر
إذ كـــــــان يغشـــــــى نـــــــاظري * لمـــــــعَ الأســـــــنةَ والبـــــــواترْ
ويصـــــــمُ اســـــــماعي بهـــــــا بهـــــــا * قـــــــرع الحجـــــــارة بـــــــالحوافرْ
وهـــــــي الحضـــــــيض ســـــــهولةً * لكـــــــن بهـــــــا ثبـــــــت مخـــــــاطرْ
هبنـــــــي أســـــــأت كمـــــــا أســـــــات * أمـــــــا لهـــــــذا العتـــــــب آخـــــــرْ
هـــــــب ذلتـــــــي لبنـــــــوتي * وأغفـــــــر فـــــــإن الله غـــــــافرْ

ISSN:1858-838

ثانياً: اعتذاريات التوجس والهرب

أعني بها الاعتذاريات التي منبعها الخوف من سوء المصير، والتي قيلت وصاحبها متوجس تساوره المخاوف من البطش والتنكيل به عقوبة وفي أحايين كثيرة يكون هارباً أو متخفياً جراء ما توسوس به نفسه، فقد يأتي مثل هذه الاعتذاريات أكلها حيناً فيمن على قائلها بالعفو ويخلع عليه أثواب الهنا الرضا وشآبيبه وقد تخفق فلا يزداد المعتذر إليه إلا جفوة ومن ذلك قول جعفر المصحفي مستعطفاً المنصور معتذراً إليه[11] :

عفـــــا الله عنـــــك إلا رحمـــــة * تجـــــود بعفـــــوك أن أبعـــــدا
ألـــم تـــر عبـــدا عـــدا طـــوره ومـــولى عفـــا ورشـــيدا هـــدى
ومفســـــد أمـــــرٍ تلافيتـــــه فعـــاد فأصـــلح مـــا أفســـدا
أقلنـــي أقالـــك مـــن لـــم يـــزل يقيـــك ويصـــرف عنـــك الـــردى

فالمصحفي يعتذر ويستعطف المنصور مخاطباً إياه خطاباً مباشراً ويرجوه العفو عنه بغير قليل من توجس وخوف من العقوبة ولابن عمار في المعتمد قبل أن يقع في يده اعتذارية من هذا القبيل ففي القلائد: " كتب ابن عمار أول اعتذارياته للمعتمد بعد أن غدر به ابن رشيق الذي أخرجه من مرسية بخدعة وكان ابن عمار دخل مرسية قائد لجند المعتمد ولكنه نبذَ عهد المعتمد وخلعه واستغل بمرسية، وخلف بها ابن رشيق وذهب متفقداً لثغورها، فمنعه ابن رشيق الرجوع إليها"[19] إزاء ذلك وبعد أن شرب من نفس كأس الغدر كتب إلى المعتمد معتذراً[19] .

أأســلك قصــداً أم أعــوج إلــى الركــبِ * فقد صرت من أمري على مركب صعبِ
وأصــبحت لا أدري أفــي البعــد راحتــي * فأجعلــه حظــي أم الخــط فــي القــربِ
علـــى أننـــي أدري بأنـــك مـــؤثرٌ * علـى كـل حـال مـا يزحـزح عـن كربـي

ISSN:1858-838

أهابــك للحــق الــذي لــك فــي دمــي * وأرجــوك للحــبِّ الــذي لــك فــي قلبــي
حنانيــك فــيمن أنــت شــاهد نصــحه * ولــيس لــه غيــر انتصــاحك مــن حســب
ومــا جئــتُ شــيئاً فيــه بغــي لطالــب * يُضــاف بــه رأي علــى العجــز والعجــب
ســوى إنــك أســلمتني لملمــة * فللــت بهــا حــدى وكســرت مــن غربــي
ومــا أغــرب الإيــام فيمــا قضــت بــه * ترينــي بعــدي عنــك آنــس مــن قربــي
أمــا أنــه لــولا عوارفــك التــي * جــرت جريــان المــاء فــي الغصــن الرطــب
لمــا ســمتُ نفســي مــا أســوم مــن الأذى * ولا قلــتُ إن الــذنب فيمــا جــرى ذنبــي
ساســتمنح الرحمــى لــديك ضــراغة * واســألوا ســقياً تجــاوزك العــذب
فــإن نفحتنــي مــن ســمائك حرجــف * ســأهتف يــا بــرد النســيم علــى قلبــي

فالشاعر في اعتذاريته متأرجحٌ بين أمرين أحلاهما مر أيرجع إلى المعتمد أم لا، وحيرته بادية رغم بعده، ثم يستعطف المعتمد قائلاً: بأنه موقن برضائه عنه وعفوه عن ذلته مع اعترافه بوجوب قتله فرجاؤه غير ذلك وما ذلك إلا لحبه للمعتمد الذي ملك عليه قلبه وجوانحه، ثم يتدارك بأن ما فعله لا يستحق عليه عقاباً فالمعتمد سبب لكل ماجرى مع أنه خاطبه في بداية قصيدته مقرا بحقه في إهدار دمه مقابل ما اقترفه من ذنب وهذا أسوأ ما يتوقع من عقاب . ومع ذلك يطلب الصفح لما عرف به المعتمد من جميل سجايا وما كان بينهما من مودة سالفة، ولولا ذلك ما وضع نفسه موضع الذلة والانكسار واعتذاره دون جنية تستحق ذلك. قال ابن خاقان "فرق له المعتمد وأشفق وأقشع نوء حقده عليه وأخفق، وعزم على الصفح عنه والتجاوز وإن يرفع بالإغضاء عنه المعاوز فكتب إليه مراجعاً.

لَــديّ لَــك العُتبــى تُــزاحُ عَــن العتــبِ * وَسَــعيُك عِنــدي لا يُضــاف إِلــى ذَنــبِ
واِعــزِزْ عَلَينــا أَن تُصــيبَكَ وِحشَــةٌ * وَأنسُــك مــا تدريــه فيــكَ مِــنَ الحُــبِّ

فَـدَع عَنـكَ سُـوءَ الظَـنّ بـي وَتَعـدَّهُ * إِلـى غَيـره فَهـوَ المُمَكّـن فـي القَلـبِ
قَريضُـك قَـد أَبـدى تَـوَحَّشَ جانِـبٍ * فَراجَعـتُ تأنيسـاً وَعِلمُـكَ بـي حَسـبي
تكلفتـه أَبغـي بِـهِ لَـكَ سَـلوَةً * وَكَيـفَ يُعـاني الشـعرُ مُشـترك اللـبِّ[19]

ولا يدري هل كان المعتمد أراد أن يخدعه حتى يقع في حباله بتزيين القول أنه سيعفو عنه؛ أم ترى قد رق له فعلاً، أما صاحب الأبيات فلم تزده المراجعة إلا نفاراً وسوء ظن بالمعتمد. ومن تلك الاعتذاريات قول ابن سيدة مستعطفاً إقبال الدولة ابن الموفق بعد فراره من دانيه عقب وفاة "موفق" والد المعتذر إليه[11] .

ألا هـل إلـى تقبيـل راحتـك اليمنـى * سـبيل إن الأمـن مـن ذاك واليمنـا
فتنقضـي همـوم طلحتـه خطوبهـا ولا غاريـاً يبقـين ولا ممتنـا
غريـب نـأى أهلـوه عنـه وشـفه هـواهم فأمسـى لا يقـر ولا يهنـأ
فيـا ملـك الأمـلال إنـي محـلأ عـن الـورد لا عنـه أزاد ولا أدنـى
تحققـت مكورهـاً فأقبلـت شـاكياً لعمـري أمـاذون لعبـدك ان يعنـي
وإن تتأكـد فـي دمـي لـك نيـةٌ فـإني سـيف لا أجـن لـه جفنـا
إذا مـا غـدا مـن حـر سـيفك بـارداً فقـدماً غـدا مـن بـرد نعمـاءكم سـخنا
وهـل هـي إلا سـاعة ثـم بعـدها سـتقرع مـا عمـرت مـن نـدم سـناً
ومـالي مـن دهـري حيـاة ألـذّها فتعتـدها نعمـى علـي وتمتنـا
إذا ميتـة أرضـتك عنـا فهاتهـا حبيـب إلينـا مـا رضـيت بـه عنـا

التمس ابن سيدة العفو الذي يمثل أمنه خبونهاية هواجس نفسه، فإنه أضحى غريب ناءٍ عن أصله وذويه فهو محلاً عن الورود في موقف بين بين لا يعاقب ولا يعفى عن جنايته، فسيَّبان عنده الرضى والعقوبة بالقتل، لأنه قد تمتع قدماً بانعام من سيقلته والموت لحظة أو ساعة يرتاح من شقائه ولكن مليكه سيقرع سنة من ندم

طول حياته، وقد تنغصت معيشته فليست هناك لذة يخشى عليها فمرحباً بالموت إن كان قتله يرضيه عنه فكلّ ما يجلب رضاه حبيب على نفسه.

ويلحظ في هذا القسم من اعتذاريات الأندلسيين ذكر عقوبة القتل وهوانه على المعتذر في سبيل رضى من اعتذر إليه، ولعلّ ذلك يعود إلى البطش والعنف والتنكيل الذي كان سائداً بالأندلس في ذلك الوقت أو مبالغة في الإلحاح في طلب العفو. وكذا الحديث عن ذكريات الماضي وصفاء الوداد لسلّ السخائم والضغائن من النفوس ولمعادلة ما جره الصدود والغضب وفي بعض هذه الاعتذاريات امتنان على المعتذر إليه بما قدم المعتذر من سالف خدمة، وبأنه إذا نفذ فيه عقوبة القتل فسيندم أبد الدهر على ذلك فمن الأحسن مراجعة ما عزم عليه والتعفف والعفو عنه، ورغم الظنون السيئة التي تدور بخلد المعتذر حول مصيره، فإنه يضمر حباً لمن اعتذر له ويرضى بالقتل إن كان ذلك يرضيه ويسكن غضبه.

ثالثاً: الاعتذار من داخل الحبس

وهي اعتذاريات صادرة كذلك من نفوس في غاية التوجس وسوء الظن بالمصير، فإن كان أصحاب الاعتذاريات السابقة متوجسون من إنزال العقوبة بهم، بعد أن تأكدت الجفوة وعدم الرضا، فهؤلاء منتظرون لذاك المصير السيئ بل يرونه قريباً رأى العين، مضافاً إلى ذلك وحشة السجون، وغلظة السجانين وسوء معاملتهم والمعتذر المحبوس لا ينفك لحظة من مقارنة ماضية بحاضرة الماثل أمام عينيه ويا لها من مفارقات. ومن ذلك قصيدة ابن زيدون التي اعتذر فيها لأبي الحزم جهورمع ما جاء فيها من فخر بنفسه ففيه مدح لأبي الحزم جهور تاميل الواثق من العفو[3] .

إن طـالَ فـي السِـجنِ إيـداعي فَـلا عَجَـبٌ * قَـد يـودَعُ الجَفـنَ حَـدُّ الصـارِمِ الـذَكَرِ

ISSN:1858-838

وَإِن يُثَـبِّط أَبـا الحَـزمِ الرِضـى قَـدَرٌ * عَن كَشفِ ضُرّي فَلا عَتَبٌ عَلى القَدَرِ
مـا لِلـذُنوبِ الَّتـي جـاني كَبائِرِهـا * غَيـري يُحَمِّلُنـي أَوزارَهـا وَزَري
مَـن لَـم أَزَل مِـن تَأَنّيـهِ عَلـى ثِقَـةٍ * وَلَـم أَبِـت مِـن تَجَنّيـهِ عَلـى حَـذَرِ
الكـاظم الغـيظ ينسـاب الضـمير لـه * لـولا الأنـاة سـقاه مـن دم هـدر

ثم يمتدحه بعدة أبيات خالعاً عليه صفات وشيم الغرة والإباء والكرامة ثم يعود إلى الاعتذار مشوباً بغير غليل من العتاب واللوم. ويلح على شفاعته وعفوه:

لـي فـي اِعتِمـادِكَ بِالتَأميـلِ سـابِقَةٌ * وَهِجـرَةٌ فـي الهَـوى أَولـى مِـنَ الهِجَـرِ
فَفـيمَ غَضَّـت هُمـومي مِـن عُـلا هِمَمـي * وَحـاصَ بـي مَطلَبـي عَـن وِجهَـةِ الظَفَـرِ
هَـل مِـن سَـبيلٍ فَمـاءُ العَتـبِ لـي أَسِـنٌ * إِلـى العُذوبَـةِ مِـن عُتبـاكَ وَالخَصَـرِ
لا تَلـهُ عَنّـي فَلَـم أَسـأَلكَ مُعتَسِـفاً * رَدَّ الصِـبا بَعـدَ إيفـاءٍ عَلـى الكِبَـرِ
وَاِسـتَوفِرِ الحَـظِّ مِـن نُصـحٍ وَصـاغِيَةٍ * كِلاهُمـا العِلـقُ لَـم يوهَـب وَلَـم يُعَـرِ
هَبنـي جَهِلـتُ فَكـانَ العِلـقُ سَـيِّئَةً * لا عُـذرَ مِنهـا سِـوى أَنّـي مِـنَ البَشَـرِ
إِنَّ السِـيادَةَ بِالإِغضـاءِ لابِسَـةٌ * بَهاءَهـا وَبَهـاءُ الحُسـنِ فـي الخَفَـرِ
لَـكَ الشَـفاعَةُ لا تُثنـى أَعِنَّتُهـا * دونَ القَبـولِ بِمَقبـولٍ مِـنَ العُـذُرِ
فاشـفع أكـن مثـل ممطـور ببلدتـه * جـزلان بـالوطن المـألوف والـدهر
وَالِـبَس مِـنَ النِعمَـةِ الخَضـراءِ أَيكَتَهـا * ظِـلّاً حَرامـاً عَلـى الآفـاتِ وَالغِيَـرِ
نَعـيمَ جَنَّـةِ دُنيـا إِن هِـيَ اِنصَـرَمَت * نَعِمـتَ بِالخُلـدِ فـي الجَنّـاتِ وَالنَهَـرِ

استخدم ابن زيدون الشفاعة بدلاً عن العفو وإن كانت الشفاعة تعني السعي من المقربين إلى السلطان في موضوع مثل سجن ابن زيدون حتى يعفى عنه ولكنه ربما أراد أنه الشافع والصافح لما بينهما من مودات

ISSN:1858-838

وقربى وفي قصيدة أخرى له من داخل سجنه طرق على ذات المعاني العتاب والتذكير بسالف خدمته، وما سعى به الواشون من أقوال أفسدت ما بينهما ثم يطلب شفاعته ويترضاه ومنها هذه الأبيات[3] :

أَبـا الحَـزمِ إِنّـي فـي عِتابِـكَ مائِـلٌ * عَلـى جانِـبٍ تَـأوي إِلَيـهِ العُـلا سَـهلِ
أَفـي العَـدلِ أَن وافَتـكَ تَتـرى رَسـائِلي * فَلَـم تَتـرُكَن وَضـعاً لَهـا فـي يَـدي عَـدلِ
وَمـازالَ وَعـدُ الـنَفسِ لـي مِنـكَ بِـالمُنى * كَـأَنّي بِـهِ قَـد شِـمتُ بارِقَـةَ المَحـلِ
أَأَن زَعَـمَ الواشـونَ مـالَيسَ مَزعَمـاً * تُعَـذِّرُ فـي نَصـري وَتُعـذِرُ فـي خَـذلي
وَأَصـدى إِلـى إِسـعافِكَ السـائِغِ الجَنـى * وَأَضـحى إِلـى إِنصـافِكَ السـابِغِ الظِـلِّ
وغيـرك رام العـذر إبـلاغ سـمعه * فصـم وأصـفى للوقيعـة والعـدل
وَلـو أَنَّنـي وَقَعـتُ عَمـداً خَطيئَـةً * لَمـا كـانَ بِـدعاً مِـن سَـجاياكَ أَن تُملـي
وَمِثلِـيَ قَـد تَهفـو بِـهِ نَشـوَةُ الصِـبا * وَمِثلُـكَ قَـد يَعفـو وَمالَـكَ مِـن مِثـلِ
هِـيَ النَعـلُ زَلَّـت بـي فَهَـل أَنـتَ مُكـذِبٌ * لِقيـلِ الأَعـادي إِنَّهـا زَلَّـةُ الحِسـلِ
أَلا إِنَّ ظَنّـي بَـينَ فِعلَيـكَ واقِـفٌ * وُقـوفَ الهَـوى بَـينَ القَطيعَـةِ وَالوَصـلِ
فَـإِن تُمـنَ لـي مِنـكَ الأَمـاني فَشـيمَةٌ * لِـذاكَ الفَعـالِ القَصـدِ وَالخُلُـقِ الرَسـلِ
وَإِلّا جَنَيـتُ الأُنـسَ مِـن وَحشَـةِ النَـوى * وَهَـولِ السُـرى بَـينَ المَطِيَّـةِ وَالرَحـلِ
سَـيُعنى بِمـا ضَـيَّعتَ مِنّـيَ حـافِظٌ * وَيُلفـى لِمـا أَرخَصـتَ مِـن خَطَـري مُغلـي

ثقة الشاعر في العفو الذي بدأنا به حديثنا عن اعتذارياته من داخل سجنه وعدم ضراعته تلك الضراعة التي رأيناها حتى في المعتذرين الطلقاء أبان عنه في أبياته الأخيرة التي كشفت عن تهديد بالهرب من السجن واللجوء إلى أعداء الأمير من أمراء الطوائف الآخرين وذكّره أنه سيندم إذ ذاك ولا يجد إجابات مقنعة عن تفريطه فيه، وكان الشاعر واثق من الخلاص من سجنه متى ما أراد ذلك وإلا لما صرح بما هو عازم عليه.

وعلى النقيض من ذلك معتذرون آخرون من داخل السجون وقد ذهب بهم الوساوس كل مذهب من ظنّ

السوء في المآل والمصير، وقد بلغت قلوبهم حناجرهم وأرواحهم حلائقمهم قال المعتمد معتذراً لأبيه بعد أن أخرجه باديس ابن حيوس من مالقة بمفاجأته إياه فغضب عليه المعتضد عباد وسجنه[11] فقال[20]:

سَـــكِّن فُـــؤادكَ لا تَـــذهَب بِـــهِ الفِكَـــرُ * مـــاذا يُعيـــد عَلَيـــكَ البَـــثُّ وَالحـــذرُ
وَإِن يَكُـــن قَـــدرٌ قـــد عـــاق عَـــن وَطَـــرٍ * فَـــلا مَـــرَدّ لمـــا يـــأتي بِـــهِ القـــدرُ
وَإِن تَكُـــن خيبَـــةٌ فـــي الـــدَهرِ واحِـــدَةٌ * فَكَـــم غَـــدَوتَ وَمـــن أشـــياعك الظَفَـــرُ
يافارِســـاً تَحـــذَر الأقـــرانُ صَـــولَتَهُ * صُـــن عبـــدَك القِـــنّ فَهـــوَ الصـــارِمِ الـــذكرُ
قَـــد أَخفقتنـــي صُـــروف أَنـــتَ تعلمهـــا * وَغـــالَ مـــورد آمـــا لـــي بِهـــا كـــدر
فـــالنَفسُ جازِعَـــةٌ وَالعَـــينُ دامِعَـــةٌ * وَالصَـــوتُ مُرتَفِـــعٌ وَالسِـــرُّ منتشِـــرُ
وَزادَ هَمّـــيَ مـــا بالجســـم مِـــن سَـــقَمٍ * وشِـــبتُ رأســـا وَلَـــم يبلُغنـــي الكِبَـــرُ
لَـــم يـــأت عبـــدُك دَنبـــا يَســـتَحِقُ بـــه * عُتبـــى وَهـــا هُـــوَ قـــد نـــاداكَ يَعتَـــذِرُ

ترجى المعتمد أباه أن يسكن فزاده حتى لا يذهب به فكره بعيداً فإن المقادير نافذة خيرها وشرها ولا قوة في الأرض تردها ولا حذر منجي منها. ويذكره بانتصاراته السابقة التي لا ينبغي أن تمحوها خيبة واحدة. ثم يرجوه أن يصونه ويحفظه لمقبل أيامه فهو من هو شجاعة وشهرة وما أخفق في هذه المرة إلا لأمور هو أدرى بها منه، والآن هو أكثر جزعاً وحزناً لما أصابه من فشل فعينه دامعة وصوته خفيض وطرفه كسير ذلة وهوانا، وقد تغير لونه وشاب رأسه وهو بعد صحيح جسم لم يعتريه علةٍ وشاب في ريعان الشباب، وأنه آتِ معتذراً مع عدم اغترافه ذنباً يستحق العتب ويوجب الاعتذار. ثم يرمى بدائه غيره "حسادة" ويحملهم الذنب لأنهم غدروا به، وهم مطمئنون لثقة أبيه فيهم، فهم يظهرون خلافاً لما يعلنون، يصطنعون النصح والحب والنفع ويبطنون ضد تلك الصفات والأمر واضح لمن يعرفهم حقاً يظهر ذلك في ألفاظهم مهما نمقوها وألحاظهم فالعيون تتنم عما في القلوب.

ISSN:1858-838

مـــا الـــذَنبُ إِلّا عَلـــى قَـــومٍ ذَوي دَغـــلٍ * وَفـــى لَهُـــم عهـــدُك المعهـــود إِذ غـــدروا

قَـــومٌ نَصـــيحتُهُم غِـــشٌّ وصـــدقهمُ * مَـــينٌ وَنَفعهـــم إِن صُـــرّفوا ضَـــرَرُ

يُمَيِّـــزُ الـــبُغض فـــي الأَلفـــاظِ إِن نَطَقـــوا * وَيُعـــرَفُ الحِقـــدُ فـــي الأَلحـــاظ إِن نَظَـــروا

فإن كان ابن زيدون واثق من أحد خياري العفو أو الهرب ربما لأنه واثق من تمكنه من الهرب لأنه كان وزيراً لبني جهور مدبراً لأمور دولتهم فسهل عليه تدبير خطة الهرب حتى جهر بها في اعتذارياته، وإن كان المعتمد واثقاً من العفو عنه لعاطفة الأبوة فالذي القى به في غيهب السجن أبوه المشهور بفتكه بخصومه وهذا ما جعل المعتمد يصدر في بداية القصيدة عن خوف ورهبة فابن عمار صاحب النموذج الأخيرالذي نحن بصدد إيراده لم يكن له تلك الثقة في العفو، فرأيناه متوجساً هارباً معتذراً للمعتمد في نموذج سابق فقد تحققت أوهامه وما تحدثه بن نفسه فقد وقع في يد المعتمد فسجنه بقصره، ولم يترك أعداؤه له فرجة تخرجه من محنته ولو مقدار سمّ خياط إلا أغلقوه في وجهه، وصدوه وأوغرو صدر المعتمد عليه فمثل شعره هواجس نفس المسجون الذي لا يرتجى خلاصه وهو متيقن بلقاء منيته في سجنه ومع كل ذلك فنفسه طامعة في العفو وإصلاح ما فسد بينه وبين المعتذر إليه بدأ ابن عمار اعتذاريته بمدح المعتمد بحسن الصفات والكرم والسماحة حال العقوبة، وبعذره في حالة المعاقبة وهو دائماً ميال في خياريه لما يرضى الله ويرجوه أن أراد أن يعاقبه إلا يلتفت إلى ما يقوله الوشاة وإن قالوا في حقه خيراً وماذا يشيدون في قولهم فهو معترف بما اقترفه من ذنب مع أن حلم المعتمد كالصخرة الملساء التي يزل ويزلق عنها ما علاها وهو يرجو عكس ما يرجوه عدوه ولم لا يكون ذلك فقد أسلف الخدمة ومحض الوداد وإن ذلك بأعمال سيئة فاسدة فمن الجائز أو البدهي أن يعقب الفساد إصلاح في الأعمال ثم يطلب عفوة وإقالة عثرته وأن يجعل ما كان بينهما من وداد سابق

ISSN:1858-838

شفيعاًوإن يمحّ كل ذلك الجرم الذي اقترفه بغيض من فيض ما عرف به من رحمة وعفو وصفح على من أساء الفعل أو استحق العقوبة كل ذلك في رائعته:(19)

سجاياك إن عافيت أندى وأسمحُ * وعذركَ إن عاقبت أجلي وأوضحُ
وإن كان بين الخطتين مزيةٌ * فأنت إلى الأدنى من الله أجنحُ
حنانيك في أخذي برأيك لا تطعْ * عُداتي وأن أثنوا علي وافصَحوا
وماذا عسى الأعداءُ ان يتزيدوا * سوى أن ذنبي واضح متُصحصحُ
نعم لي ذنبٌ غير أن لحلمه * صفاةٌ يزل الذنب عنها فيسفحُ
وإن رجائي أن عندك غيرما * يخوضُ عدوى اليوم فيه ويمرحُ
ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمةً * يكران في ليل الخطايا فيصبحُ
وهبني وقد أعقبتُ أعمالَ مفسد * أما تفسد الأعمالَ ثمة تصلحُ
أقلني بما بيني وبينك من رضىً * له نحو روح الله باب مفتحُ
وعف على آثار جرم جنيتَه * بحبة رحمى منك تمحو وتصفحُ

ثم يعود بتذكيره بأن لا يلتفت إلى ما يقوله أعدائه من الوشاة ويصرح ببعضهم وهم بنو عبد العزيز الذين سيأتون بحديث مزور منمق لأنه إذا عفى عنه سوف ينافسهم في مواقعهم وقد تخيلهم بعد الدعاء عليهم بأنهم شمتوا بما حل به مشيرين تارة ومعرضين أخرى، وهم يقولون أن المعتمد سيجزيه شر جزاء بما فعله ولكنه على ثقة إن المعتمد سوف يصفح عنه مع أنه يعلم أنه شديد البطش ولكنه يرجح حلمه:

ولا تلتفت رأي الوشاةِ وقولهم * فكل إناء بالذي فيه يرشحُ
سيأتيك في أمري حديث وقد أتى * بزورٍ بني عبد العزيز موشحُ
وما ذاك الا ما علمت فانني * إذا تبت لا أنفك آسو وأجرحُ
تخيلتهم لا در لله درهم * أشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا

ISSN:1858-838

وقـــالوا ســـيجزيه فـــلان بفعلـــه * فقلـــت وقـــد يعفـــو فـــلان ويصـــفحُ

ألا إن بطشـــاً للمؤيـــدِ يرتجـــى * ولكـــن حُلمـــاً للمؤيـــد أرجـــحُ

ثم اختتم رائعته الاعتذارية هذه بأبيات تؤكد حبه وما يكنه للمعتمد من ود، فحبه له كالتميمة المعلقة بقلبه وهو يحبه كيف دار به هواه له أم عليه فهو راضٍ عنه على كل حال وليهنأ بالسلو والنسيان إذا عاقبه بالقتل فإنه يموت وهو مشتاق إليه شوقاً مبرحاً ملك عليه قلبه وعقله:

وبـــين ضـــلوعي مـــن هـــواه تميمـــةٌ * ســـتنفعُ لـــو أن الحمـــامُ مجلـــحُ

ســـلام عليـــه كيـــف دار بـــه الهـــوى * إلـــي فيـــدنو أو علـــي فينـــزح

ويهنيـــه إن مـــت الســـلو فـــإنني * أمـــوت ولـــي شـــوق اليـــه مبـــرحُ

الخاتمة:

قبل إلقاء عصا التسيار والاستقرار بعد هذه الرحلة عبر اعتذاريات الشعراء الأندلسيين في حقبة ملوك الطوائف نعرض النتائج التي توصلت إليها الدراسة وهي:

أولاً: الاعتذار من أبواب الشعر الرئيسية التي طرقها الشعراء عبر العصور الأدبية المختلفة لدواعيه التي تتجدد باستمرار في حياة البشر من خوف ورهبة جراء ارتكاب جرائم وأخطاء، أو الرغبة في استدامة وداد إخاء وحسن صلات، أو محو جفوة وتكدر في العلاقات لسوء فهم أو يسبب وشاية من الوشايات.

ثانياً: كثرت الاعتذاريات في عصر ملوك الطوائف بالأندلس، لما شاب هذا العصر من نزاعات وتفكك للدولة الإسلامية هناك وانقسامها إلى دويلات مدن متنازعة فيما بينها غالباً، ففي مثل هذه الأجواء تكثر الوشايات والدسائس والأطماع الشخصية في أحوال مبتدلة متغيرة غير مستقرة على حال.

ISSN:1858-838

ثالثاً: المعاني التي طرقها الشعراء الأندلسيين في هذه الحقبة في اعتذارياتهم لم تخرج عن تلك المعاني التي طرقها المعتذرون من الشعراء بالمشرق من لدن مبتدع الغرض النابغة الذبياني وهي تدور حول: تبيين حق العقوبة للمعتذر إليه وكانت قاسية تصل إلى القتل، والتذكير بالوداد والصفاء السائد بين المعتذر والمعتذر إليه في السابق واستواء الموت والحياة عند المعتذر في حالته وهو غير مرضى عنه، والإلحاح على العفو والرضا، ومدح المعتذر إليه.

رابعاً: أشارت معظم الاعتذاريات على عقوبة القتل كعقاب محتمل نزوله على المعتذر وما ذلك إلا للعنف الذي صاحب حقبة ملوك الطوائف في الأندلس، أو إلحاحاً في الاستعطاف، وربما إشارة لعدم الجزع من الموت.

خامساً: امتن بعض المعتذرين على من يعتذر إليه بما قدم من سالف خدمة، وعدوا ذلك كافياً للعفو عنهم وهو امتنان في معرض العتاب وغير محبذ في مخاطبة الملوك ولكن ربما استحضار ما كان من علاقة سابقة رفعت تلك الحواجز. بل ذهب بعض المعتذرين إلى أبعد من ذلك في معاتبتهم إذ أشاروا بأنهم سيلجأون إلى أعداء المعتذر إليه كما سبق في اعتذار ابن زيدون لأبي الحزم جهور.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم

2. ابن رشيق القيراوني الأزدي أبو علي الحسن (1401هـ-1981م)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط1، ج2 ص 95.

3. ابن زيدون (دون تاريخ) ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة، الفجالة، ط1، ص 258،267.

4. ابن سعيد المغربي (1964م) المغرب في حلي المغرب، حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف مصر، القاهرة، ط5، ج2، ص 279.

5. ابن سلام أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (1400هـ-1980م) الأمثال، تحقيق عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث بغداد، ط1، ص 64 ، 170.

6. ابن سيدة أبو الحسن علي بن إسماعيل (1417هـ-1996م) المخصص، تحقيق خليل إبراهيم ضقال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، ج2، ص53.

7. ابن عبد ربه شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن بدر بن جرير بن سالم المتوفى سنة 380هـ (1404هـ) العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج2 ص18.

8. ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية – بيروت، ط4، ج3، ص114، 117

9. ابن منظور أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي (1414هـ)، لسات العرب، دار صادر، بيروت، ط3، ج5، ص545.

10. أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد المتوفى 395هـ (دون تاريخ) ديوان المعاني، دار الجيل – بيروت، ط1، ج1، ص91،218

11. أبو نصر الفتح بن عبد الله بن محمد بن عبد الله الوزير الكاتب القيسي الإشبيلي المتوفى 529هـ (1983 م). مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق محمد علي شوايكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، ص 160 ، 293.

12. البحتري ديوانه (1415هـ/1995م) شرح وتقديم حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط1، مج1، مج20.ص 96مج2 ص 218

13. ثعلب أحمد بن يحي بن زيد بن يسار الشيباني بالولاء أبو العباس المتوفى 291 هـ (1995م) قواعد الشعر تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، ص 354

14. الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (1423هـ) البيان والتبيين، دار مكتبة الهلال – بيروت، ط3، ج2، ص 61.

15. الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد (1407هـ/1987م) الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، ج2، ص737

16. الخالديان أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي المتوفى نحو 180هـ وأبو عثمان بن سعيد بن هاشم الخالدي المتوفى 371هـ (1995م)، حماسة الخالديين بالأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين الجاهليين والمخضرمين، تحقيق د. محمد علي دقة وزارة الثقافة الجمهورية العربية السورية، ط1، ص94،95

17. الصولي أبو بكر محمد بن يحي بن عبد الله المتوفى 335هـ، (1425) الأوراق قسم أخبار الشعراء، شركة أمل، القاهرة، ط2، ج3، ص 112

SJIF Impact Factor 3.38
ISSN:1858-838

18. العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (دون تاريخ) الفروق اللغوية حققه وعلق عليه محمد إبراهيم سليم، دار العلم للثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط4، ص234، 235

19. الفتح بن خاقان أبو نصر محمد بن عبد الله القيسي الأشبيلي المتوفى 529هـ (1284هـ) قلائد العقيان، ط1، ص 36، 142، 37، 38، 39 101،24،23،95،94

20. المعتمد بن عباد ديوانه (1421هـ/2000م) تحقيق حامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي دار الكتب المصرية القاهرة، ط5، ص46، 52 ، 36